1

الباب الأول

حسن البنا

رجل على موعد

obeikan.com

obeikan.com

المقدمة

لولا حسن البنَّا لأصبحنا أمة من الهنود الحمر – نعم لولا هذا الرجل القرآني – والإنسان الفذ – لضاعت أمتنا وأصبحت في خبر كان.

كان الاستعمار قد استطاع أن يحتل كل البلاد الإسلاميَّة ويفرض عليها نفوذه وثقافته وحضارته – وكانت الخلافة الإسلاميَّة باعتبارها جامعًا للمسلمين، وباعتبارها أساس وحدتهم وتماسكهم قد سقطت. وفي مصر ذاتها كان الحزب الوطني الذي رفع راية الكفاح والجهاد الإسلامي ضد الاستعمار الإنجليزي قد ضعف إلى درجة التلاشي. وكانت زروع المستعمر قد ضربت جذورها في التربة المصرية وأصبح لها مؤسسات وأحزاب ومفكرين وكُتاب وصحافة ونظم.

وكانت العلمانيَّة باعتبارها أحد الزروع الشيطانية التي غرسها الاستعمار قد سيطرت على الواقع السياسي والثقافي في مصر «قلب العالم الإسلامي».

وكان من الطبيعي أن يسفر ذلك كله عن ضياع ثقافة الأمة وتميزها وحضارتها الذاتية – وأن تنقطع صلة الأمة بتاريخها، وأن يحاول الاستعمار وأبناء المدرسة الاستعماريَّة أن يربطوا مصر خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا بالحضارة الأوروبية، وأن يقطعوا صلة مصر بالعالم الإسلامي ويقطعوا صلات العالم الإسلامي ببعضه بعضًا – وأن يستبدلوا الثقافة الإسلاميَّة بالثقافة الأوروبية .

ولم يكتف الاستعمار بتقطيع أوصال العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة والسيطرة على مقدرات الأمة الإسلاميَّة، وإنما أرادوا أن يجتثوا قيمها الإيجابيَّة المستمدة من الإسلام، مثل الوحدة الإسلاميَّة تحت راية الخلافة ومثل الجهاد وغيرها، وهكذا ظهر على عبد الرازق ليحاول أن يدعي كذبًا عدم وجود

الجانب السياسي ونظام الحكم في الإسلام، وظهرت القاديانية لتحاول أن تدعي أنه لا جهاد في الإسلام – وظهرت المدارس الثقافية التي تدعي أن مصر ترتبط حضاريًا بما يسمى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل طه حسين. وظهرت الأحزاب والصحف، ومدارس الفكر العلمانيَّة التي تستلهم الحضارة الأوروبية في سلوكها السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

وكان معنى هذا كله أن يتحول الإنسان المسلم إلى مسخ مقلِّد للحضارة الأوروبية -- وأن يفقد ذاتيته وهويته وتوجهه الحضاري الخاص به – كان معنى هذا أن تضيع الأمة حضاريًا – وأن تتحول إلى أمة من التوابع للاستعمار، تفكر بطريقته وتخضع لتوجهه الثقافي والنتيجة الحتمية لكل هذا أن تتحول أمتنا إلى أمة من الهنود الحمر بلا حضارة ولا ثقافة ولا كيان.

وتكمن قيمة حسن البنَّا في أنه جاء على موعد جاء في عام ١٩٢٩م – ١٩٤٩م وكانت الأمة تمر بأقسى مراحل حياتها في لحظة مفصلية – تعرضت فيها لسقوط الخلافة كجامع وموحد للأمة ١٩٢٤م – وانهار الحزب الوطني في مصر وامتلك العلمانيون زمام الإدارة السياسيَّة سواء في حزب الوفد أو أحزاب الأقلية، وتفشّتْ الدَّعوات الإقليمية الانعزالية والدَّعوات الغربية وتراثها – جاء حسن البنّا في هذا الوقت ليعيد إلى الأمة تماسكها بدينها وتمسكها به وليجلو الوجه الحقيقي والمشرق للإسلام. وليجعله معيارًا للسياسة والسلوك والمنهج – أي أنه يؤكّد وجود حضارة خاصة وذاتية لأمتنا، تستطيع بها أن تصمد في وجه الغزو الحضاري – جاء حسن البنّا ليقيم مؤسسة سياسيّة وتربويَّة واجتماعيَّة واقتصاديّة مرتبطة ونابعة من الإسلام في مواجهة المؤسسات المغتربة والعميلة والدّاعية إلى حضارة الغرب – جاء حسن البنَّا ليعيد إلى الأمة قيمها الإيجابيَّة في الوحدة والجهاد، وهي القيم الكفيلة باستمرار أمتنا ووجودها ذاته – جاء حسن البنّا ليفعل ذلك كله، ولولا أنه فعله لكنا أمة من الهنود الحمر.

***

وقد يسأل البعض سؤالاً يقول: « ولكن حسن البنَّا لم يقض على الاستعمار تمامًا ولم يجتث مدارس الفكر الغربي ومؤسساته العلمانيَّة والتغريبيَّة ، فما زال

الاستعمار يتحكم فينا بوسائل شتى اقتصاديَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة وتعليميَّة ومنهجيَّة، وما زال الحكم الإسلامي غائبًا عن السلطة ومطارد ويعاني من الاستبداد والعسف والقهر...؟».

ولكن هذا السائل يتجاهل أمرًا هامًا – وهو أن ظروف المعركة ونتائجها لا تُحسب بهذا الشكل البسيط – فلنتخيل جيشين في معركة – الجيش الأول يريد اجتثاث الجيش الثاني – وقيَّض الله للجيش الثاني رجلاً استطاع أن يحقق تماسك هذا الجيش، وأن يستمر في المعركة حتى يومنا هذا – ولم يُمكّن الجيش الأول من تحقيق نتائجه – وبالرغم من أنه لم يلحق الهزيمة كاملة بالجيش الأول، إلا أن تحقيقه لأسباب الصمود لدى الجيش الثاني إنجاز هام في حد ذاته.

إن الحساب البسيط يقول إن المجاهدين الذين وقفوا ضد الاستعمار من أمثال عمر المختار – عبد الكريم الخطابي – عز الدين القسَّام – عمر مكرم – الأفغاني – النديم – مصطفى كامل – حسن البنَّا – لم يستطيعوا هزيمة ذلك الاستعمار – ولكن جهاد هؤلاء رغم استشهادهم جعل من المستحيل اجتثاث جذور الأمة – وقلل إلى حد كبير من العجلة الاستعماريَّة وعطلها عن تحقيق أهدافها وبالتالي أعطى التماسك للأمة، ومنحها الأمل والاستمرار في الجهاد .

إن مدرسة حسن البنَّا مازالت تعمل، بل واستطاعت أن تخرج الرجال وأن تحقق للأمة اعتزازها بحضارتها ورفضها للاستعمار وقيمه وحضارته، وأن تجعل المدرسة الاستعماريَّة بكل أحزابها وصحفها ومؤسساتها شيئًا لقيطًا هامشيًا لا قيمة له، وقللت إلى حد كبير آثارها التخريبيَّة والتدميريَّة.

حسن البنَّا... هل تستطيع الكلمات البسيطة أن تحدد ملامح شخصيته..؟ هل هو رجل من طراز فريد؟ هل هو الملهم الموهوب؟ هل هو أستاذ الجيل؟ – هل هو إمام أنقذ أمة؟ هل هو الإمام الشهيد؟ – هل هو داعية فوق المساومات؟ هل هو روح تسري في كل البقاع، هل هو رجل تطابق قوله مع عمله؟ هل هو زعيم يمتلك فراسة وخبرة؟ هل هو عطاء كامل لدعوته؟ هل هو الشجاع الصابر المؤدب؟ هل هو الرجل الواضح والعملي؟ هل هو الرجل

المتجرد؟ نعم هو كل هذا وليس شيئًا من هذا وحده.

ولكن قبيل هذا وبعده هو إنسان غير معصوم من الخطأ، واتخاذه قدوة واجب عظيم بشرط أن ندرك أن الجوانب الفذة في شخصيته، لا تكتمل الاستفادة منها إلا بإدراك تلك النقطة الهامة، وهو أنه إنسان اجتهد وهو غير معصوم خاضع للصواب والخطأ.

obeikan.com

ملامح وجوانب من شخصية الإمام الشهيد

رجل متواضع – ملبس نظيف في تواضع – مسكن نظيف في تواضع – لم يكن بالفارع الطول – يلفت الأنظار بطوله وجسامته – كان أقرب إلى القصر منه إلى الطول – مليح القسمات، بعينيه بريق يلتمع فيه الذكاء. تسعد العين بالنظر إليه، وترتاح النفس بالقرب منه – ولكنها ملاحة الرجل التي يلتمس من وضاءتها الخير الكثير. ولم يكن – رخيم الصوت ولكنه واضح المخارج، عذب الإرسال، له في قراءة القرآن نغم خاشع يحملك إلى الاستماع إليه بكل حواسك، إذا تحدث ملك الأسماع وصمت المجلس كله، وإذا اعتلى المنبر فالفصاحة والبيان وعفة اللفظ وطُهر اللسان وجرأة الحق وثبات الجنان، يطول به الكلام في الخطبة الواحدة ساعات فيزداد الشوق في نفوس السامعين إلى المزيد، وألا ينتهي الكلام، لم تكن كتاباته ولا خطبه مُحلاَّة، ولكن ينطلق قوله كالسهم فيصل إلى غايته صدق القول، واضح الحجة قوي البرهان – لا تكلف ولا تصنع – تشعر وأنت تصغي إليه أن الأفكار تتزاحم على شفتي لسانه، وكأنه لسان الحر الصادق في رويَّة واتزان وتدفق[1].

كان يتتبع ويقتدي بالرسول ﷺ في سلوكه وفي حياته كلها. وكانت غايته هي إرضاء الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيرًا – لم يسع إلى مال أو منصب، وإنما سعى إلى رضاء ربه والعمل على خُطى رسوله ﷺ – والتفاني في خدمة دعوة الإسلام وأمة الإسلام.

كان مدرسًا إلزاميًا – يحسن عمله ويحرص عليه – ويستغل كل وقته في العمل وفي الأجازة من أجل الدعوة الإسلاميَّة. تربى حسن البنَّا في أسرة بسيطة لأب كان يعمل بإصلاح الساعات – حصل على تعليمه الأوَّلي في قريته

(١) عمر التلمساني – حسن البنَّا أستاذ الجيل – دار النشر والتوزيع الإسلامية ١٩٨٤م.

«المحمودية» محافظة البحيرة – تلقى العلم لمدة ثلاث سنوات في معهد لإعداد المدرسين للمدارس الابتدائية في دمنهور ثم التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة وتخرج منها ١٩٢٧م حيث عمل مدرسًا في مدرسة ابتدائية حكومية بمدينة الإسماعيلية – نقل سنة ١٩٣٤م إلى القاهرة حيث عمل حتى عام ١٩٤٦م وبعد ذلك استقال وتفرغ للنشاط السياسي.

كان حسن البنَّا قد انضم في أثناء دراسته بكلية العلوم إلى جمعية الشبان المسلمين وانضم إلى المجموعة التي تحرر مجلة «الفتح».

كان يحرص على نظافة ملابسه دون تكلف – فلم يكن يحرص على أناقة الملابس وزخرفها – وإن كان يحرص على التعطر وتمشيط الشعر. كان دائم التلاوة لكتاب الله تعالى – يقوم الليل ويكثر من الصيام.

وكان يمتلك ذاكرة قوية غير مألوفة في قوتها – إذا سأل أخًا عن اسمه مرة ثم التقى به بعد أشهر طوال حيَّاهُ باسمه وسأله عن والده وابنه فلان – وكان يعرف عدد شُعب الإخوان والمسئول عن كل شُعبة – وما كان ذاكرته تخونه أبدًا بل كانت تواتيه بالوقائع على وجهها الصحيح مهما تباعد بها الزمن.

كان يمتلك الحب لكل من يعرفه ومن لا يعرفه – كان مثالاً للحب لكل الناس مؤيدوه – وأعداؤه على السواء لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا في الله. ولا يتخذ موقفًا شخصيًا أبدًا. بل كل موقف نابع من صالح الدعوة الإسلاميَّة وأهدافها.

كان لا يهدأ – وكان يتحرك في كل بلاد مصر – يجوب قراها ومدنها – نجوعها وكفورها لنشر دعوة الإخوان المسلمين واستنهاض هِمم الجماهير – يتحمل في ذلك الحر والبرد وينام على الطرقات لا يحمل معه إلا حقيبة جلدية ومصحفًا ومشطًا وزجاجة عطر.

كان رقيقًا من مشاعره – مجاملاً للناس بما يحبونه في غير تكلف ولا إطراء. لا يتصدر المجلس – ويجلس حيث يقضي به المجلس – وإذا صلَّى في المسجد لا يتقدم للإمامة.

وكان يُشعر المشايخ أنه تلميذ لهم – يخاطب الصغير منهم والكبير بأبرع آيات

الأدب والرقة والتواضع.

ما أحرجَ يومًا عالِمًا أو أوقفه موقف المخطِئ بل كان يسلك أسلوبًا هينًا لينًا مهذبًا مقنعًا.

كان صادقًا مع نفسه ومع الناس ما جرب عليه أحد كذبًا قط. كان يثق في الله ثقة مطلقة – ثم كان يثق في نفسه أيضًا بغير تعالٍ ولا غرور ولا غفلة ولا عنجهية – كان شجاعًا لا يخشى في الله لومة لائم.

***

يحكي الأستاذ عمر الأميري – الأستاذ بجامعة المغرب – أنه كان يحب الزهور – وكان يومًا في زيارة الإمام الشهيد وعلم الإمام الشهيد أن الأستاذ عمر الأميري سوف يسافر مع والده إلى الإسكندرية في صباح اليوم التالي في تمام السابعة صباحًا، وقبل أن يتحرك القطار بدقيقتين، إذا به يرى الإمام الشهيد يسرع الخُطى على رصيف القطار يحمل باقة من الورود الناضرة يقدمها تحية لوالد الأستاذ عمر، بمناسبة سفره إلى الإسكندرية.

ويحكي الأستاذ عمر التلمساني – يقول: «دعا أحد الإخوان الإمام الشهيد إلى الغذاء في قريته بالقرب من شبين القناطر وكنت محاميًا ومقيمًا في هذا البندر، وفي نفس الوقت كنت عضوًا في مكتب الإرشاد ولم يدعُني الدَّاعي مع فضيلته – وأحب المرشد أن يشعر الدَّاعي بتقصيره دون أن يحرجه وكان يرى وجوب وجودي في الوليمة دون أن يحرجني – فجاء من القاهرة في سيارة، وأوقفها في أحد ميادين البندر وأرسل من يستدعيني من المحكمة فوزعت قضاياي على بعض الزملاء، وأسرعت إلى حيث يقف المرشد الذي قال لي: اركبْ.. قلت: إلى أين..؟ قال: لتناول الغذاء عند فلان. قلت: ولكني لم أُدع وفضيلتك تعرف مدى حساسيتي في مثل هذا المجال.. قال: أعلم حقًا.. ولكني لا أستطيع أن أمر من شبين القناطر دون استئذان الأخ المسئول عنها فكيف تريدني أن أتخطاك..؟ فإما أن تركب وإما أن أرسل إلى الدَّاعي ليحضر ويدعوك معنا ».

ويعلق الأستاذ عمر التلمساني على ذلك قائلاً: «كان التصوير رائعًا

والدرس بارعًا، والتربية عالية والموقف دقيقًا – وكيف يستطيع الأخ مع هذه الرقة البالغة من مرشده الذي يقول: «إنني لا أستطيع اجتياز منطقتك دون اصطحابك في أي شأن، مَن يستطيع إلا أن يطيع».

في إحدى المرات صحبه أحد الإخوان يومًا إلى مؤتمر بالمنزلة دقهلية وبعد الفراغ من المؤتمر والذهاب إلى النوم دخل هذا الرفيق مع المرشد إلى حجرة بها سريرين وعلى كل سرير «ناموسية»، ورقد كل منهما على سريره، وأرخى ناموسيته، وبعد دقائق قال المرشد للأخ : أنمت يا فلان؟ وكان الجواب بالنفي، وتكرر السؤال.. وتكرر الرد، حتى ضاق الأخ فلم يرد على المرشد، وظن المرشد أن الأخ قد نام فتسلل من ناموسيته على أطراف أصابعه خارجًا من الحجرة وأخذ مداسه في يده وذهب إلى دورة المياه؛ حيث جدد وضوءه ثم اتجه إلى آخر الصالة حيث فرش سجادة وأخذ يتهجد، وكان المرشد لا يريد إحراج الأخ، فربما يضطر إلى التهجد موافقة لأستاذه، والأستاذ لا يرضى بإرغام الطالب على تنفُّل غير مفروض عليه.

– في إحدى المرات ذهب الإمام الشهيد إلى حفل في مدينة الزقازيق، وكانت الإضاءة بواسطة الكلوبات، وأثناء خطبته انحلت عُقدة أحد الكلوبات، فهوى إلى الأرض محشرجًا مدخنا يكاد ينفجر ولو انفجر وتعلقت النار بالحبل الذي انحلت إحدى فَرْدَتَيْهِ وبقيت الأخرى متصلة بسقف السرادق لكان الحريق مروّعًا -- وهرول الجميع مبتعدين عن هذا الكلوب – وبكل البساطة وفي منتهى الهدوء وبالثقة الكاملة ترك المرشد المنصة، وأخرج مدية الجوَّالة وتقدم إلى الكلوب في غير هرولة وفصله عن السقف وحمله إلى خارج السرادق[1].

يقول الأستاذ عمر التلمساني «غاضبته مرة وانصرفت، وشعرت بخطئي فعدت في اليوم التالي معتذرًا؛ فلم يقبل وأمرني بالرجوع من حيث أتيت؛ فعدت كاسفَ البال ولكن لست ناقمًا لأننا موقنون بصواب تصرفاته معنا – وما راعني إلا أنني بعد عودتي إلى منزلي – أجده يدق بابي ومعه أحد الإخوان ويقول جئنا لنتغدّى معك – هكذا يؤاخذنا وهكذا يسترضي بلا معقبات في

(١) عمر التلمساني – مرجع سابق.

النفس ولا رواسب في الصدر».

***

كان الإمام الشهيد شجاعًا – كان يقود المظاهرات وخاصة للتضامن مع الشعب الفلسطيني – ويوم أن خرج يقود مظاهرة من الأزهر لمناصرة فلسطين وأطلق الرصاص على المتظاهرين، وأصيب الإمام الشهيد في يده وظل في مقدمة المسيرة. ويوم أن أطلقت عليه سبع رصاصات أصابته كلها فنزل من السيارة متأنيًا ـ لا فزعًا ولا مضطربًا ـ وأمسك بتليفون جمعية الشبان المسلمين وطلب الإسعاف بنفسه.

وكان حسن البنَّا عفوفًا – ولم يجنح إلى جمع المال والاهتمام به. فلم يُعرف عنه أنه امتلك ضيعة أو عقارًا – بل إنه لم يمتلك حتى منزلاً طوال حياته ولا مسمارًا في شباك.

كان واضح العبارة قويّها – وكانت شعاراته بسيطة واضحة تصل إلى عقول الناس وقلوبهم بسهولة شديدة، كان يخاطب الناس بلغتهم وبما يفهمونه وبما يحسونه.

انظر إلى شعار الإخوان: «الله غايتنا، القرآن دستورنا والرسول ﷺ زعيمنا، الجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » لقد وضعه شعارًا لدعوته مثل «دعوة الحق والقوة والحرية».

كان حسن البنَّا شديد المروءة يعرف حق الطريق – يحكي أحد القضاة أنه كان في بلدته وفي طريق عودته إلى القاهرة وفي وقت متأخر من الليل فرغ البنزين من السيارة؛ فتوقفت على الطريق الزراعي في مكان بعيد عن القرى والضياع، وكان الظلام حالكًا ورهبة السطو تسيطر على المشاعر – وكان هذا القاضي كلما أشار إلى سيارة لم تستجب خوفًا من السطو والسرقة – وعندما أوشك ذلك القاضي على اليأس وأيقن أنه وزوجته سيبيتون على الطريق – إذا به يشير إلى سيارة فتقف، وينزل منها رجل يرتدي الزي الأفرنكي – ملتحٍ توحي ملامحه بالاطمئنان الكامل، وتحقق أمله، وقام راكب تلك السيارة بإعطائه البنزين، وطلب منه أن يسير أمامه بسيارته فربما احتاج شيئًا آخر – وعلم فيما بعد أن هذا الرجل هو حسن البنَّا.

رجل جاء على موعد

«لقد كان حسن البنَّا أمل الشرق في صراعه مع المستعمر».

روبير جاكسون
مؤلف كتاب «حسن البنَّا»
ترجمة الأستاذ أنور الجندي

نستطيع أن نقول إن حسن البنَّا كان مؤمنًا أشد الإيمان بفكرته – وأنه كان يثق بنفسه إلى حدٍ بعيد – وأنه جمع بين الإصلاح عن طريق الحكم وعن طريق التربية معًا، وأنه قد جمع حوله اكثر من نصف مليون من الأتباع المخلصين، نستطيع أن نقول إنه أفلت من غوائل المرأة والمال والحياة وهي المغريات الثلاثة التي سلطها المستعمر على المجاهدين، وقد فشلت كل المحاولات التي بُذلت في سبيل إغرائه، نستطيع أن نقول إنه أفاد من تجارب من سبقه من المجاهدين، وأنه أمضى حياته القصيرة العريضة مجانبًا لميادين الشهرة الكاذبة وأسباب الترف الرخيص، وأنه كان عجيبًا في معاملة خصومه وأنصاره على السواء، كان لا يهاجم خصومه ولا يصارعهم بقدر ما يحاول إقناعهم وكسبهم إلى صفّه. وأنه كان يؤمن بالخصومة الفكرية ولا يحولها إلى خصومة شخصية.

ونستطيع أن نقول إن حياته وتصرفاته كانت تطبيقًا صادقًا للمبادئ التي نادى بها – وأنه رفض المساومة وأنصاف الحلول – وأنه كان عفّ اللسان – عفّ القلم متواضعًا تواضعَ من يعرف قدره – وأنه كان واقعيًا يفهم الأشياء على حقيقتها. وأنه جمع حوله من الأنصار من كل الفئات وخاصة العُمَّال والفلاحين والطلبة المثقفين – وأنه كان يجوب الحواري الضيقة والمدن والقرى والنجوع متحملاً مشاق السفر في غير كلل ولا تعب. وأنه استطاع أن يكوِّن أقوى تشكيل سياسي في الشرق في غضون عدة أعوام.

ونستطيع أن نقول إنه كان خارق الذكاء – يخاطب كل فئة بما تفهم وبما هي مستعدة له، وأنه كان قادرًا على الوصول إلى العقول والقلوب من أيسر طريق. نستطيع أن نقول إنه كان بسيطًا، ولكنه في نفس الوقت كان مُلمًا بكل ما حوله من رجال وعلوم وأحداث – وأنه كان كيسًا لبقًا في مواجهة كل أمر وكل حدث وكل أزمة، كان يعرف لغة الأزهريين والجامعيين والأطباء والمهندسين والصوفية وأهل السُنة – ويعرف لهجات الأقاليم في الدلتا والصعيد والصحراء، ويعرف تقاليد كل منها – كان يعرف لهجات الفلاحين والجزارين والفتوات – وكان يُحدِّث كل فئة بما يتفق مع ذوقها وفنها.

كان يلتهم كل شيء – لا تجد علمًا ولا فكرًا ولا نظرية جديدة في الأدب أو السياسة أو القانون أو الاجتماع لم يقرأها ولم يلم بها.

نستطيع أن نقول هذا وأكثر منه – ولكننا لا نستطيع أن نوفي الرجل حقه ما لم نعرف الأرضية السياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافية التي واجهها والتي عمل في إطارها.

سقوط الخلافة الإسلاميَّة:

ظلت الخلافة الإسلاميَّة منذ عهد الخليفة الصديق رضي الله عنه وحتى أوائل هذا القرن – متصلة الحلقات ينتقل فيها مركز الخلافة من عاصمة إلى أخرى – وتكون قوية أحيانًا – ضعيفة أحيانًا أخرى – عادلة مرة – وجائرة مرة، إلا أنها في كل حال كانت رمزًا للرابطة التي تجمع المسلمين في شتى بقاع الأرض – وهذه الرابطة كانت من الأهمية بمكان لدرجة نستطيع معها أن نقول: إن الوحدة تحت راية الخلافة هي التي حفظت للأمة الإسلاميَّة هويتها واستمرارها وصمودها أمام مختلف التحديات.

وبعد الصعود الحضاري الأوروبي – تجلت أهمية الخلافة الإسلاميَّة العثمانية في الذود عن حياض المسلمين والإسلام وحفظ الأمة، والتصدي للهمجية الاستعماريَّة، ووضع العصا في عجلتها وتقليل آثارها التدميرية.

ولم يكن من الغريب أن تقوم الدول الاستعماريَّة بصنع المؤامرات ومحاولة

إجهاض تلك الخلافة، وتفكيك عراها وتحطيمها – لأن الاستعمار أدرك منذ فترة طويلة أن وحدة المسلمين تحت راية الخلافة هي أهم دروع الأمة في مواجهته.

كان شعور «الجامعة الإسلاميَّة» لدى شعوب المسلمين شعورًا قويًا سائدًا، وكان حب الخلافة والدفاع عنها من أركان الإسلام كما يقول مصطفى كامل. ولعل هذا الشعور المرتبط بالعقيدة كان صخرة قوية أمام المستعمر.

في ١٨ ديسمبر ١٩١٤م أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وأعلنت معها زوال السيادة العثمانية عليها. ثم أعلنت في اليوم التالي خلع الخديوي عباس وتولية الأمير حسين عرش مصر مع منحه لقب «سُلطان» استكمالاً لمظاهر انفصال مصر عن تركيا – وأقرَّ مجلس الوزراء في أول اجتماع له برئاسة السلطان حسين إلغاء وظيفة قاضي قضاة مصر التركي – وبذلك قطعت آخر علاقة بالخليفة.

ومع هذا ظل الولاء لدى المصريين موجهًا إلى الخلافة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلاميَّة، برغم إعلان الأحكام العرفية ووضع الصحف تحت الرقابة لكبت هذا الشعور. وقد تجلى ذلك الشعور عند المصريين في عدد من الحركات والمواقف منها امتناع طلبة كلية الحقوق عن الذهاب إلى كليتهم لاستقبال السلطان حسين في اليوم الذي حدد للزيارة «١٨ فبراير سنة ١٩١٥م» ومنها إطلاق النار على السلطان حسين عند مرور موكبه بشارع عابدين في ٨ أبريل سنة ١٩١٥م، ولم يمض على هذا الحادث شهران حتى وقع عليه اعتداء آخر في الإسكندرية، حين أُلقيت قنبلة من نوافذ أحد المنازل في شارع رأس التين على مركبته وهو في طريقه لصلاة الجمعة – كما أن وزير الأوقاف قد طُعن بسكين في محطة القاهرة في ٥ ديسمبر سنة ١٩١٥م – بل إن أحد الخدم في قصر عابدين حاول أن يحرق القصر على السلطان – كما أن المنشورات التي تندد بزوال السيادة العثمانية وإعلان الحماية البريطانية على مصر قد تفشَّتْ في كل مكان، ووجدت طريقها إلى القصر ذاته، كما أن بعض قبائل العُربان قد رفضوا أن يقسموا يمين الطاعة للإنجليز، وقام الضابط والجنود المصريون بالإسماعيلية

برفض إطلاق النار على إخوانهم الأتراك، واحتجبت صحيفة الشعب عن الظهور احتجاجًا على إعلان الحماية، ورفض أمين الرافعي إصدارها حين طلب منه السلطان حسين ذلك.

وفي أوائل الحرب العالمية الأولى قام جماعة من علماء الأزهر بحركة ضد الاحتلال لتأييد الخديوي عباس – وهتف الأزهريون للخديوي عباس حين شاهدوا أخاه محمد علي يؤدي صلاة الجمعة في مسجد الأزهر، وتكونت في مصر جماعة سرية في عام ١٩١٨م اتصلت بالسنوسيِّين للهجوم على الإنجليز في مصر، وقد حاربت جماعة من المصريين مع السنوسيِّين الزاحفين إلى مصر مثل عبد الرحمن عزام ومحمد صالح حرب.

ولعب محمد فريد في منفاه دورًا هامًا في تغذية الشعور بالولاء للخلافة والعداء للإنجليز.

وبفعل تلك المواقف والحركات وغيرها انفجرت ثورة ١٩١٩م بمجرد انتهاء الحرب العالمية الأولى – وظل العامل الإسلامي هو محرك الثورة ووقودها – إلا أن محترفي السياسة وأرباب الاستعمار استطاعوا أن يسرقوا نتيجة الثورة، وأن تتمخض تلك الثورة عن قيام حزب علماني هو الوفد، أسقط ولاء مصر للخلافة ونحا نحوًا يتسم باللاإسلاميَّة.

وفي الوقت نفسه – كانت دول الخلافة «تركيا» تعاني من فترات ومؤامرت بفعل دعاة الاستعمار وعملاؤه، وانتهت تلك الفتن والمؤامرات بسقوط الخلافة الإسلاميَّة عام ١٩٢٤م.

وبسقوط الخلافة الإسلاميَّة – كان المسلمون قد فقدوا أهم وأقوى حصونهم وأصبحوا في مهب الريح – بل وأصبحت حضارتهم كأمة مهددة – وانقلبوا إلى عدد كبير من الدويلات يأخذ بعضها برقاب بعض.

محاولة اجتثاث فكرة «الجامعة الإسلاميَّة»:

لم يكتف الاستعمار بالطبع بإسقاط الخلافة الإسلاميَّة باعتبارها أهم دروع الأمة الإسلاميَّة – ولكنه دأب قبل وبعد إسقاطها على محاولة اجتثاث فكرة

«الجامعة الإسلاميَّة» باعتبارها الفكرة القادرة على المحافظة على كيان الخلافة أو بعث الحياة فيها من جديد، ومحاولة جمع شمل المسلمين تحت قيادة واحدة مرة أخرى – ليس هذا فحسب بل إن هذه الفكرة ذاتها كانت المحرك الأساسي في مقاومة الاحتلال ورفض التشرب بروح الحضارة الأوروبية التي تريد تذويب أمتنا وإخضاعها وإلحاقها بها حضاريًا.

وقد استخدم المستعمر أبواقًا محلية لترديد أفكار لمناهضة تلك الفكرة – إلا أن تلك الأفكار ظلت محصورة لدى قليل من المثقفين – الذين حاولوا بث أفكار مثل الوطنيَّة بطريقة لا تثير حساسية المسلمين – وروَّجوا لكون الوطنيَّة لا تتعارض مع المفاهيم الإسلاميَّة.

وفي مطلع القرن العشرين ظهرت فكرة القوميَّة العربيَّة وقد لعب نصارَى الشام دورًا هامًا في ترديد ونشر تلك الأفكار وقد دعا هؤلاء إلى تأسيس دولة على أساس وطني لا على أساس ديني – كما سعوا إلى تأليب الرأي العام المصري ضد الأجانب وخاصة الأتراك رافعين شعار «مصر للمصريين» وغيرها من الشعارات التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. كما ظهرت الدَّعوات الفرعونية التي موَّلها الأجانب – وتلقت تلك الدَّعوات دعمًا قويًا من الحكام المرتبطين بالاستعمار، مثل الخديوي سعيد الذي أمر بأن تُلحن وتُغنَّى أغنية تتغنى بالوطنيَّة على أساس قُطري وليس إسلامي فقط كان قد ألفها «صالح مجدي» وأن تُغنَّى في المحافل والمواسم. كما ظهرت دورات للكتابة بالعامية. ولكن ظلت كل هذه الدَّعوات لا تجد لها صدىً لدى الجماهير وانحصرت في الأوساط المرتبطة بالاستعمار. وذلك بفضل تصدِّي الزعماء الإسلاميين، مثل السيد جمال الدين الأفغاني الذي هاجم هؤلاء الذين يتعصبون للفكرة الوطنية، ويحطون من شأن العصبية الدينيَّة ورماهم بالغفلة واتهم أبواق الاستعمار وسار على هذا النحو المشرف عبد الله النديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش، الذين تصدُّوا للكواكبي حين دعا إلى فكرة الخلافة العربيَّة، وكذلك هؤلاء الذين دعوا إلى فصل السلطة الدينيَّة عن السلطة (الزولية) التي تبنَّاها مؤتمر المبشرين الذي عقد في مصر ١٩٠٦، واستمر الاستعمار يغذي

الأفكار المنحرفة في محاولة لإلقاء الضباب على فكرة الجامعة الإسلاميَّة؛ فنجد أن أبواق الاستعمار مثل شبلي شيل. وعناصر حزب الأمة الذي أسسه الاستعمار أساسًا، وكذلك ما يُسمى بالحزب الوطني الحر – وصحف المقطم والمقتطف. ويُعد كتاب علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم» هو أخطر الكتب وأكثرها جرأة في ذلك الوقت (١٩٢٥م) بمهاجمة فكرة الجامعة الإسلاميَّة والخلافة الإسلاميَّة على السواء.

ظهور الأحزاب الاستعماريَّة:

اعتمد الاحتلال على عدد من المؤسسات السياسيَّة والثقافية والاجتماعيَّة في تمرير سياسته، وضرب هوية الأمة وإخضاعها له. وفي هذا الصدد شجع كرومر قيام حزب من كبار الملاك وذوي المصالح المرتبطة بالاستعمار، وكذلك ظهر الحزب الوطني الحر كحزب عميل للاستعمار، وقد اتخذ هذا الاسم في محاولة لضرب الحزب الوطني – كما ظهر بعد نهاية الحرب وكنتيجة للمطالبة بالجلاء حزب الوفد الذي استغل الحماس الإسلامي للجماهير ومشاركتهم في الثورة – ولكنه تحول إلى حزب علماني – ونحَّى الفكرة الإسلاميَّة جانبًا. وقد تشابهت تلك الأحزاب برغم اختلاف زعمائها في كونها ترفض الجامعة الإسلاميَّة، وترى وجوب بناء الدولة على أسس وطنيَّة لا دينيَّة، كما أنها لم تأخذ الكفاح المسلح كطريق لتحرير البلاد من الاستعمار، بل كطريق للمفاوضات – ووصل الحد ببعضها إلى تأييد الاحتلال.

كما ظهرت أحزاب أخرى كانشقاق على الوفد، ولكنها لم تتميز عنه في هذا الإطار شيئًا. وهكذا كانت الحياة السياسيَّة في مصر قد بدأت تأخذ شكل مؤسسات سياسيَّة لا إسلاميَّة وتعتمد على برامج لا دينيَّة.

ضعف الحزب الوطني:

عقب ثورة ١٩١٩م – وبالرغم من أن الحزب الوطني قد لعب دورًا هامًا في الإعداد لها، وتزكية أُوارها، وبرغم الدافع الإسلامي الواضح للجماهير المشاركة في ثورة ١٩١٩م – إلا أن سعد زغلول وأضرابه استطاعوا أن يسرقوا

الثورة وأن يُجهضوا توجهها الإسلامي – بل وأن يستفيدوا من نتائجها في قيام حزب علماني كبير هو حزب الوفد – في الوقت الذي عانى فيه الحزب الوطني من موت مصطفى كامل ونفي محمد فريد وسقوط الخلافة الإسلاميَّة، الذي كان ضربة قاصمة للحزب الوطني، الذي كان يركز مبادِئَهُ على دعم تلك الخلافة، ودعم فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ولا شك أن الحزب الوطني قد لعب دورًا هامًا في تزكية الشعور بالانتماء الإسلامي، والوقوف في وجه التيارات الفكرية المنحرفة المرتبطة بالاستعمار – كما لعب دورًا هامًا في الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي والدفاع عن ارتباط مصر بالخلافة وصلاتها الإسلاميَّة القوية بغيرها من بلدان العالم الإسلامي – كما خاض الحزب المعارك الضارية ضد أرباب الفتنة الطائفية واستطاع أن يجهض كثيرًا من تلك الفتن. إلا أنه مع بداية العشرينات من هذا القرن كان الحزب الوطني قد أصبح ضعيفًا إلى درجة التلاشي.

ظهور الأفكار التغريبيَّة وإفساد التعليم والقضاء:

قلت فيما سبق أن الأفكار اللادينيَّة مثل الوطنيَّة والقوميَّة وغيرها قد ظهرت بتشجيع ودعم كامل من الاستعمار، وقد اعتبرنا أن كِتاب «الإسلام وأصول الحكم» كان قمة تلك الأفكار وأكثرها وقاحة. ولم يكتف الاستعمار ـ بالطبع ـ بذلك بل راح يوعز إلى أتباعه بإنشاء مدرسة فكرية كاملة طالبت بالإضافة إلى ما سبق بإلغاء المحاكم الشرعية وتعديل قوانين الأحوال الشخصية، ونشر الأفكار المتحررة وخاصة في قضية السفور والحجاب ومجمل قضايا المرأة عمومًا وعلاقتها بالرجل والأسرة. وفي عام ١٩٢٦ أي بعد عام واحد من صدور كتاب علي عبد الرازق صدر كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» حاول فيه أن يشكك في بعض الحقائق التي وردت في القرآن الكريم – وفي نفس الوقت بدأ سلامة موسى في نشر أفكاره التي تنادي بالارتباط بأوروبا وأن الحضارة الحقيقية هي حضارتها – كما نادى بإلغاء دراسة اللغة العربيَّة وإحلال العامية محلها، وهاجم فكرة الجامعة الإسلاميَّة – وانضم إلى تلك الجوقة عدد آخر من المثقفين مثل إميل زيدان صاحب الهلال ومحمد حسين هيكل في جريدة السياسة لسان

حال حزب الأحرار الدستوريِّين – وأطلَّت الدعوة الفرعونية برأسها – وتمَّ تغيير المناهج في المدارس على يد المستشار الإنجليزي ليخدم هذا التوجه – كما تم استبدال القوانين الإسلاميَّة في المحاكم بالقوانين الفرنسية، وذلك في محاولة لقطع صلة مصر بكل ما هو إسلامي، أضف إلى هذا كله دخول بعض العادات والتقاليد الغربية إلى مجتمعاتنا مثل انتشار حانات الخُمور ودور البَغاء الرسمي وأوراق القمار واليانصيب، وخلعت بعض النساء حجابهن وكثرت حفلات الرقص في بيوت الأغنياء.

***

الحالة الاقتصاديَّة:

تعرَّضت مصر بفعل الاستعمار إلى عملية نهب منظَّم – وقد تمَّ ضرب وتصفية كافة أشكال الصناعة الوطنيَّة، وحاول المستعمر أن يربط مصر به اقتصاديًا عن طريق تغيير نمط الإنتاج والاستهلاك، بحيث يصبح كل نشاط اقتصادي مرتبطًا في تفصيلاته وكلياته بالعجلة الاقتصاديَّة الاستعماريَّة. كما أن إدارة الاقتصاد عن طريق النمط الغربي وخاصة البنوك الربويَّة قد أدى إلى مزيد من الفوارق الطبقيَّة – كما كانت الآلة الصناعية الاستعماريَّة تظلم العُمَّال، وتسبب البطالة لهم – واستطاع الأجانب وخاصة اليهود أن يسيطروا على النشاط الصناعي والتجاري – ومن ناحية أخرى تدهورت أحوال الفلاحين تحت ربقة الظلم الذي مارسه عليهم كبار الملاك.

التبشير:

لعب بعض الأقباط المصريين دورًا في تأييد الاحتلال – كما أنشأ الإنجليز وغيرهم من الدول الاستعماريَّة مدارس للتبشير، وقد قام الحزب الوطني بكشف مثل هذه الألاعيب مبكرًا فكتب أحد كتاب الحزب الوطني معلقة على ذلك في جريدة اللواء قائلاً: «أيها اللواء الذي طالما بسط علمنا – ومد إلينا حمايته وكان سيفًا مشهورًا على الدساسين والمنافقين – كيف صبرت الآن على قوم من الزعانف لا هم من المسلمين ولا هم من الأقباط، ولكنهم يدسون

الدسائس بين أهل الوطن الواحد – تنفيذًا لسياسة معينة يقصد بها التفريق وبذر بذور الشقاق.

ويعلق الشيخ عبد العزيز جاويش على ذلك قائلاً: «يسرنا توارد الكتب علينا من مثل هذا الكتاب – لأن في ذلك دليلاً على أن المسلمين المصريين متألمون تألمًا شديدًا من دس الدسائس بينهم وبين إخوانهم الأقباط، ويعتقدون كما نحن نعتقد أن عقلاء إخواننا بريئون من هذه الحركة التي تقوم بها آلات متأثرة بسياسة الاحتلال، ونقول في الختام إننا ما سكتنا عن هذه الحركة إلا استهانة بأمرها، واحتقارًا لشأنها واعتقادًا أن الأقباط بريئون منها».

وكان الاحتلال البريطاني يلعب على هذه النغمة دائمًا – فقام بإرسال «قرياقص ميخائيل» كممثل للصحافة القبطية إلى لندن لينشر في صحفها مقالات عن الخلاف بين المسلمين والأقباط – كما كان وراء انعقاد مؤتمر للأقباط في أعقاب حادث اغتيال بطرس غالي، من ناحية أخرى أغلق الاحتلال عددًا كبيرًا من المدارس وجعل التعليم بمصروفات غالية – في الوقت الذي انتشرت فيه مدارس الإرساليات التبشيرية ومستشفياتها ومؤسساتها الاجتماعيَّة – ولم يكتف المبشرون بمهاجمة العقيدة الإسلاميَّة في محاضرات عامة بل قاموا بالتقاط صبية من المسلمين، وردّهم عن دينهم مما أدّى إلى ذعر واستفزاز الرأي العام المسلم.

***

إذن فقد كان مُنحنَى الحضارة الإسلاميَّة قد وصل إلى انحدار خطير – يهدد بزوال وانهيار تلك الحضارة من أساسها – كانت الخلافة الإسلاميَّة قد سقطت – وكان عملاء المدرسة الاستعماريَّة يحاولون اجتثاث فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ويروجون لأفكار سياسيَّة وأخلاقية واجتماعيَّة منحرفة – وكانت الأوضاع الاقتصاديَّة متردية والفقر يضرب بقوة في أوساط العُمَّال والفلاحين – وكان التعليم والقضاء قد تم صبغهما بالصبغة الغربية – كما نشط المبشرون يعملون على قدم وساق. وقامت مؤسسات سياسيَّة علمانيَّة قوية مثل الوفد – وأحزاب أخرى مثل الأمة – الوطني الحر – الأحرار الدستوريين وغيرها – ونشطت صحافة عميلة للاستعمار، وكان الحزب الوطني قد غاب عن الساحة بسبب

ضعفه إلى حد التلاشي – وجاء حسن البنَّا ليجد كل هذا – لقد جاء على موعد.

***

في مواجهة الاستعمار

اعتبر حسن البنَّا، الإنجليز هم رأس البلاء ومصدر الشقاء، فالإنجليز هم الذين يقنون وراء كل فتنة ووراء كل شقاء، ليس لمصر وحدها بل للعالم الإسلامي كله. فقد رأى حسن البنَّا أن مظاهر التدهور في مصر في كافة نواحيها ترجع إلى تدبير الإنجليز، وأن سياستهم في ذلك تنبع من كره دفين للإسلام والحضارة الإسلاميَّة[1] وأن الإنجليز وراء الترويج لمذهب الشك والإلحاد ومحاولة مسخ التاريخ المصري والإسلامي حتى لا يجد المسلمون في تاريخهم ما يدفعهم إلى الاعتزاز والرفعة، فضلاً عن محاولة تأكيد فصل الدين عن الدولة، وتصوير الإسلام بصورة الدين الروحي والتعبدي، وشغل الناس بالأوهام وخلافات البيزنطيين وأساليب التواكل والذلة وطاعة الحاكمين والمستعمرين[2].

واعتبر حسن البنَّا أن الإنجليز وغيرهم من دول الغرب الاستعماريَّة العدو الأول للعرب والمسلمين؛ فالاستعمار الإنجليزي في مصر والسودان والعراق وشرق الأردن والإيطالي في ليبيا والاستعمار الفرنسي والأسباني في تونس والجزائر ومراكش والهولندي في أندونيسيا، كل ذلك لون واحد من العذاب، وهَمٌّ واحد نزل بساحة العرب والمسلمين، فاستذلهم بعد عزة وأضعفهم بعد قوة، وفرّقهم بعد وحدة وأفقرهم بعد غِنَى، وجهَّلهم بعد عِلم وأمرضهم بعد صحة ودنَّسهم بعد طُهر وعِفَّة[3].

(١) زكريا سليمان بيومي – الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية – مكتبة وهبة ١٩٧٩م.

(٢) مجلة الإخوان المسلمون – العدد ١٩١.

(٣) مجلة الدعوة – العدد ٨.

وكانت جماعة الإخوان ترى أن الإنجليز الذين خانوا في فلسطين – وهم الذين يحولون دون استقلال ليبيا ووحدتها وهم الذين يثيرون الفتنة بين الهند وباكستان وهم الذين كانوا يعارضون في تأميم البترول في إيران – هم الذين يريدون حل جماعة الإخوان في مصر.

وعلى أثر قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ضد الإنجليز – كشف البوليس المصري عن تحركات تغذيها جماعة الإخوان في مصر للقيام بثورة مصر ضد الإنجليز، وقد وحّد الإنجليز في هذه الأعمال مبررًا لكي تطلب من وزارة حسن سرّي الحد من نشاط الإخوان، واتهمت حسن البنّا بأنه يعمل لحساب إيطاليا، كما قامت قوات الاحتلال باعتقال حسن البنّا وأحمد السُكري وعبد الحكيم عابدين.

وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية قامت جماعة الإخوان بالعديد من المظاهرات الصاخبة وطالبوا بإعداد الجماهير للكفاح المسلح ضد الإنجليز [1].

وفي أعقاب معاهدة ١٩٣٦م التي اعتبرت فيها الأحزاب الموقعة على المعاهدة أن الإنجليز حلفاء أو أصدقاء، دعت الجماعة إلى وجوب تصحيح ذلك المفهوم لدى جماهير المصريين، واعتبارهم أعداء ومحتلين وأن لا سبيل لإخراجهم إلا السّلاح [2].

وقد وضع الإمام الشهيد دعاءً يُتلَى عقب كل صلاة «اللهم رب العالمين وأمان الخائفين ومُذل المتكبرين وقاصم الجبارين تقبَّل دعاءنا وأجب نداءنا وأننا حقنا واستقلالنا. اللهم إن هؤلاء الغاصبين من البريطانيين قد احتلوا أرضنا وجحدوا حقنا ووطِئُوا في البلاد وأكثروا في الفساد – اللهم فرُدّ كيدهم عنّا وفرّق جمعهم وخذهم ومَن ناصرَهم أو هادنهم أو أعانهم أخذ عزيز مقتدر – اللهم اجعل الدائرة عليهم وسُق الوبال عليهم – وأذل دولتهم – وأذهب عن أرضك سلطانهم ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من المؤمنين».

كما قامت الجماعة بتنظيم عمليات اغتيال في شوارع القاهرة لجنود الاحتلال

(١) زكريا سليمان بيومي مرجع سابق.
(٢) النذير العددين ٢٥، ٢٦.

البريطاني وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية – كما قامت عناصر الجماعة بدور هام جدًا وحيوي في قتال الإنجليز في ضفاف القناة، وخاصة عام ١٩٥١م – وقد فسر الإمام الشهيد حسن البنَّا سرَّ تكوين الجهاز الخاص وجمع السِّلاح بالاستعداد للتخلص من الجيش البريطاني [١].

***

كان من الطبيعي إذن أن يحدث الصدام بين الإخوان والإنجليز، فالإخوان قد حملوا على عاتقهم مهمة بعث الأمة الإسلاميَّة، وكان يقف على رأس أعداء تلك الأمة الاحتلال الإنجليزي، ومن الأمور الهامة هنا توضيح رؤية الجماعة للإنجليز؛ فقد رأت الجماعة أن الاحتلال ليس مجرد جيش احتلال ولكنه عملية حضارية أساسًا تستهدف كيان وحضارة الأمة – فنجد دوريات ومجلات الإخوان تركز على أن الإنجليز وراء كل المصائب – فهم الذين ينشرون الإلحاد، وأنهم يحاولون مسخ التاريخ الإسلامي، كما يروجون لفكرة فصل الدين عن الدولة، وأنهم وراء المحاولات التي تستهدف اجتثاث فكرة الجامعة الإسلاميَّة، وأن الإنجليز وراء التردي الاقتصادي والاجتماعي وسوء أحوال العُمَّال الفلاحين – وأنهم وراء بعثات التبشير ووراء مسخ مناهج التعليم وإغلاق المدارس وتغيير القوانين وغيرها – أي أن حسن البنَّا وجماعة الإخوان كانوا يرون الاحتلال عملية حضارية ذات أبعاد سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة.

ومن ناحية أخرى – لم يفهم الإخوان عملية الاستقلال كمجرد خروج جيوش الاحتلال من مصر – بل ربطوا ذلك بتحرير مجمل العالم الإسلامي وبناء نهضة تستند على الإسلام.

وفي مواجهة ذلك الاحتلال، نجد أن الإخوان وقفوا دائمًا إلى جانب الشعوب الأخرى في ثوراتها ضد الاستعمار، وكانوا يعدون العدة للثورة إبان ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق.

وقد حدَّد الإخوان موقفهم من الاحتلال بوضوح بأن السبيل الوحيد

(١) ريتشارد ميتشل – الإخوان المسلمون وإسحاق الحسيني – وعبد العظيم رمضان.

لإخراجه من البلاد هو السِّلاح، وقد عبرت عن ذلك صحف الإخوان ووسائلهم العملية أيضًا – فقد جمعوا السِّلاح وأنشأوا التنظيم الخاص وقاتلوا في القناة – كما قاموا بعمليات اغتيال ضد الجنود الإنجليز في شوارع القاهرة. في حين اكتفت الأحزاب الأخرى بالمهادنة أو التعاون مع الإنجليز أو في أحسن الأحوال إدارة الصراع معهم بالطرق التفاوضية والدبلوماسية.

إننا سوف نحلل الدُّعاء الذي كان حسن البنَّا وجماعة الإخوان تردِّده عقب كل صلاة. فهو أولاً دعاء يطلب من الله تعالى أن يحقق للبلاد استقلالها، وأن يدمر حضارة البريطانيين ودولتهم، وأن ينتقم مِمَّن والاهم أو عاونهم أو حتى هادنهم.

إذن فالدُّعاء موجَّهٌ إلى الله تعالى لطلب الاستقلال. ليس هذا فحسب بل وتدمير حضارة الغرب – أي أن البنَّا فهم أن الصراع بين حضارتين إما نحن وإما هُمْ – كما أن الدُّعاء يشتمل على الانتقام من هؤلاء الذين يعاونون الاحتلال أو يوالونه أو حتى يقفون موقف المتفرج منه.

وبديهيٌ أن الدُّعاء يأتي عقب كل صلاة – أي خمس مرات في اليوم على الأقل – أي أن قضية الاستعمار كانت زادًا يوميًا بل قل لحظيًا لدى الجماعة. وبديهيٌ أيضا أنَّ الدُّعاء سوف يُترجم إلى عمل ويشحذ همة الدّاعي إلى تنفيذ مضمون الدُّعاء وذلك بدعوة الآخرين – أو جمع السِّلاح أو التدريب عليه وأخيرًا قتال هؤلاء الغاصبين. كما حدث في القناة أو قبلها في شوارع القاهرة.

في مواجهة الغزو اليهودي لفلسطين

اهتم حسن البنَّا وجماعة الإخوان المسلمين اهتمامًا خاصًا بالقضية الفلسطينية منذ وقت مبكر – واعتبرتها الجماعة أهم قضية إسلاميّة مُدركةً الخطر اليهودي على الحضارة الإسلاميّة وأبعاد المُخطط الاستعماري بالتحالف مع اليهود. ويقول ريتشارد ميتشيل في هذا الصدد: «إن مشكلة فلسطين هي أكثر المشكلات الخارجية إلحاحًا وأهمية بالنسبة للجماعة».

وقد زار عبد الرحمن البنَّا (شقيق حسن البنَّا) فلسطين عام ١٩٣٥ والتقى

بالحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى في ذلك الوقت – وظهر دعم الجماعة واضحًا تجاه تلك القضية خلال عامي ١٩٣٦، ١٩٣٧ وكان البنَّا قد طالب في المؤتمر الثالث للجماعة المنعقد في مارس ١٩٣٥ – طالب بجمع المال لمساندة قضية العرب – وشكَّل لجنة للدعاية للموضوع عن طريق الصحافة والمنشورات والخطب، وتم تعزيز ذلك بالمظاهرات التي خرجت تؤيد الفلسطينيِّين، كما تم إرسال المؤن والمُعدات – ويذكر الأستاذ كامل الشريف أن المتطوعين قد أرسلوا لشد أزر الثورة العربيَّة في فلسطين عام ١٩٣٦.

كما أن الجماعة قد أرسلت رجالها إلى فلسطين للحث على مناهضة الصهيونية، وكذلك الخبراء والفنيين في شئون التدريب العسكري. ومن أبرز هؤلاء الفنيِّين محمود لبيب الضابط المتقاعد، وقد أُرسل إلى فلسطين للمساعدة في تدريب المجموعات المدنية تدريبًا عسكريًا. وفي عام ١٩٤٧م طلبت السلطات البريطانية منه ومن أعضاء آخرين مغادرة فلسطين – ويمكننا أن ندرك مدى الاهتمام الذي أولته الجماعة لتلك القضية إذا علمنا أن محمود لبيب كان نائب المرشد العام للشئون العسكرية.

وظلت مشكلة فلسطين محتفظة بخطورتها وحضورها السياسي لدى الجماعات، ومن خلال الإشارة الدائمة لها في الصحف والكتيبات والخطب والأحاديث العامة والاجتماعات الشعبية وفي المظاهرات – وعندما وصل المفتي الحاج أمين الحسيني إلى القاهرة عام ١٩٤٦م قادت صحيفة الجماعة حملة مناشدة ناجحة للحكومة، لمنحِهِ حق اللجوء السياسي، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية كان البنَّا على اتصال وثيق بالجامعة العربيَّة وأمينها العام عزام باشا صديقه القديم، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، وبعد صدور قرار التقسيم في نوفمبر ١٩٤٧م اشترك البنَّا مع بعض الشخصيات الإسلاميَّة، مثل صالح حرب من جمعية الشبان المسلمين، ومحمد علوبة باشا في تشكيل لجنة وادي النيل، لجمع المال والسِّلاح للمتطوعين الذين أصبحوا يجندون علنًا لإنقاذ فلسطين.

وفي أكتوبر ١٩٤٧م أصدر البنَّا أوامره لشعب الجماعة ببدء الاستعداد للجهاد –

وفي ٢٠ أكتوبر توجهت الكتيبة الأولى من مجندي الإخوان إلى الميدان وبالطبع كانت التعبئة السريعة ممكنة، نتيجة أن أعضاء هذه الكتيبة الأولى والكتائب الأخرى التي أرسلتها الجماعة كانوا قد دربوا بالفعل قبل ذلك في فرق الجوالة والجهاز السري، وقد قام متطوعو الإخوان بجهد كبير في القتال، وخاصة في النقب وفي الدفاع عن القدس وبيت لحم – كما قدموا مساعدات هائلة للقوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.

ومن العجيب أنه برغم نجاح متطوعي الإخوان في القتال وخدماتهم الهائلة للقوات النظامية، وقيامهم بأروع أعمال البطولة – فإن الحكومة المصرية أصدرت قرارًا بحل الجماعة في ديسمبر ١٩٤٨م – وأصدرت الحكومة أوامرها لقوات الإخوان في فلسطين بالعودة إلى المعسكرات، وفي الصباح التالي وجدوا أنفسهم محاطين بقوات من الجيش المصري، ثم تمَّ إبلاغهم بقرار حل الجماعة [١] – وخيروا بين تسليم أسلحتهم والعودة إلى القاهرة وبين البقاء في إطار الانضباط العسكري للقوات النظامية، وقد وصلتهم أوامر من البنَّا بتفضيل البقاء في الجبهة ولاءً للمهمة التي جاءوا من أجلها.

وعقب اتفاقية رودس وإعادة توزيع ونقل القوَّات لحق هؤلاء الإخوان مصادرة أسلحتهم بإخوانهم في محنة القاهرة.

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الإخوان في حرب فلسطين ، كامل الشريف.

حسن البنا نصير المستضعفين

يقول باجرات سيرانيان في كتابه «الوفد والإخوان المسلمون» ترجمة بشير السباعي – مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٨٦م – في ص٣٧ «كان كُل أعضاء الجمعية من العمال غير الماهرين والفلاحين الفقراء، وجزء صغير من المدرسين وذوي الرواتب المنخفضة، وكذلك الأشخاص العاملين في مجال الخدمات الخاصة ـ وكان المستوى المعيشي لهم منخفضًا للغاية – كما انضم إلى الجمعية طُلابُ المعاهد الدراسية المتوسطة والعالية والتُّجارُ الصغار والحرفيون وعدد من الضباط وكثيرٌ من الجنود – أما ممثلوا الطبقات السائدة فلم ينضموا إلى الجمعية، واتخذوا منها موقفَ الحذر».

وفي الواقع فإن الجماعة قد تأسست على يد ستة من العُمَّال في مدينة الإسماعيلية – كما انضم إليها عدد من عمال شركة قناة السويس – وطالبت الجماعة دائمًا بإنصاف العُمَّال ودفع الفقر والمرض، ونددت بما يلاقونه من اضطهاد على يد أصحاب الأعمال – وقد نشرت صحيفة الجماعة مقالاً لأحد العُمَّال أكَّد فيه أن انضمامه إلى الجماعة يرجع إلى خلو منهاج الأحزاب السياسيَّة من الاهتمام بقضاياهم مما جعلهم نهبًا للرأسماليِّين والسياسيِّين [١].

وعلى أثر قيام إضراب عُمَّالي – هاجمت الصحف الإخوانيَّة الحكومات المصرية التي لم تف بوعودها تجاه العُمَّال، وطالبت بسن تشريعات تتضمن إنصافهم [٢] واتهمت نفس الصحيفة في مقال آخر طبقة الرأسماليِّين بأنها تقف وراء الحكومة الجائرة على العُمَّال – وطالَبت بالاعتراف بهم كطبقة لها شخصيتها الاجتماعيَّة، وكذلك بحمايتهم بضمانات اجتماعيَّة في الشيخوخة والعجز والضعف [٣].

(١) النذير – عدد ١٣ – شوال ١٣٥٧ هـ.
(٢) النذير – عدد ١٩ – ٦ – ١٩٣٩م.
(٣) النذير – عدد ١٠ – ٧ – ١٩٣٩م.

ووجهت صحف الإخوان نقدًا لقانون النقابات الذي صدر ١٩٤٠م لكونه قد حرّم تكوين اتحادات عمالية، كما حرَّم العُمَّال من حق الإضراب الذي هو سلاح العُمّال الوحيد في مواجهة بطش الرأسماليين بهم وبحقوقهم[١].

كما تم عمل قسم خاص بالعُمَّال في الجماعة يعمل وفق لائحة معلنة – وحاول الإخوان إقامة نقابة عُمَّالية تستوحي أفكارها من دعوتهم، وقد حققوا نجاحًا نسبيًا في ذلك، وخاصة في قطاع النقل والبترول والنسيج – وخصصت مجلة الإخوان بابًا ثابتًا للعمال ناقشت فيه العديد من قضاياهم، وطالبت بكسر احتكار الرأسماليين وزيادة أجور العُمَّال والحد من البطالة.

كما اهتم حسن البنَّا اهتمامًا خاصًا بالفلاحين – ودأب البنَّا وكثير من أعضاء الجماعة على القيام برحلات أسبوعية إلى الريف – بل إن البنَّا كان يقضي أغلب أجازته الصيفية للدعوة بين الفلاحين، وقد تمكن البنَّا من خلال هذه الزيارات أن يفتح شُعَبًا عديدة لجماعته في القرى المصرية، وكان من أهم عوامل الدعوة في الريف إسهام أعضاء الجماعة في محو الأمية في هذه القرى فضلاً عن بروز دور الجوالة في مكافحة الكوليرا والملاريا[٢].

وقد اعتمد الإخوان في نشر دعوتهم في الريف على إلقاء المحاضرات، وتشييد المقابر للفقراء – وإطعام الفقراء على مستوى الشعب وإنارة القرى، وتوزيع زكاة رمضان ومصالحة المتخاصمين، وحماية الأطفال من التشرد بتشغيلهم وإنشاء المساجد والمستشفيات والمستوصفات[٣].

وكان رأي البنَّا والجماعة أن من أهم مظاهر الفساد في النظام الاجتماعي انقسام الشعب إلى: قلة مستغلة مالكة وكثرة مظلومة لا يملك معظمها شيئًا[٤].

كما نبهت الجماعة إلى خطورة الاعتماد على محصول واحد. وطالب الإخوان بتحديد الملكية الزراعية وتشجيع الملكيات الصغيرة.

(١) الدعوة – العدد ٣٠، ٢٨/ ٨/ ١٩٥١م.
(٢) زكريا سليمان بيومي – المرجع السابق.
(٣) د. إسحاق الحسيني – الإخوان المسلمين.
(٤) مجلة الإخوان المسلمون – عدد أغسطس ١٩٣٥م.

من ناحية أخرى اهتم البنَّا أيّما اهتمام بالأحوال الصحية المتردية للطبقات المحرومة – فأنشأ عددًا من المستوصفات تابعة للشعب – كما أنشأ مستشفى لعلاج الفقراء وخاصة من أهل الريف بلغ عدد المتردِّدين عليه سنة ١٩٤٧م، ٥١,٣٠٠ مريضًا. كما اهتم حسن البنَّا بمقاومة الأوبئة وخاصة الكوليرا عن طريق فِرَق الكشافة – واهتم بمحو الأمية وإنشاء المدارس والأندية الرياضية في الشعب التي انتشرت في طول البلاد وعرضها.

الاهتمام بقضايا العالم الإسلامي

اهتم حسن البنَّا – اهتمامًا كبيرًا بتأكيد وحدة العالم الإسلامي والدفاع عن فكرة الجماعة الإسلاميَّة – وكان يؤكّد في كل خطبه وأحاديثه على ضرورة توحيد العالم الإسلامي وضرورة تحريره من ربقة الاستعمار. ولقد أفردت صحافة الجماعة صفحاتٍ كثيرة لمناقشة قضايا العالم الإسلامي ومشاكله – كما شُغل الإمام الشهيد بذلك دائمًا، على اعتبار أن الأمة الإسلاميَّة ترتبط ببعضها بعضًا برباط عضوي وثيق.

ففي شمال أفريقيا حرص الإخوان على مراسلة المجاهدين المسلمين في المغرب العربي مثل علاَّل الفاسي في المغرب وعبد الحميد بن باديس في الجزائر – ودافعت الجماعة دفاعًا مستميتا عن حق الشعب الأندونيسي في التحرر من ربقة الاستعمار، وايدت ثورات ذلك الشعب – كما شارك الإخوان في ثورة اليمن سنة ١٩٤٨م.

وتابعت صحافة الإخوان أحداث البترول في إيران في أوائل الخمسينات. ولعل ذلك كله يرجع إلى الأسس التي غرسها حسن البنَّا في وحدة العالم الإسلامي وارتباطه العضوي – على أن العمل الأهم في هذا الإطار هو ما قام به حسن البنَّا وجماعة الإخوان المسلمين من أجل القضية الفلسطينية.

ولعل ما يبرز اهتمام الجماعة بأحوال العالم الإسلامي قول الأستاذ عمر التلمساني في كتابه عن الإمام الشهيد «أن دار الإخوان المسلمين في مصر كانت مأوىً لكل المكافحين ضد الاستعمار فكان من نُزلائها بورقيبة – علاَّل الفاسِي

– أمين الحُسيني – عليم الله صديقي من مجاهدي الهند – هواري بومدين وغيرهم، كما يؤكّد ذلك الأمر قول أهالي كشمير والهند عندما اشتدَّ بهم الضّيق من ظلم الهندوك «سيأتي الإخوان المسلمون ويخلصوننا».

على أن أهم النقاط في هذا الإطار هو انتشار دعوة الإخوان المسلمين في كل بلاد العالم العربي والإسلامي بصورة لا تقل عن انتشارها ـ إن لم تزد ـ في موطن نشأتها «مصر».

obeikan.com

اغتيال الإمام الشهيد

كان من الطبيعي أن تتربص كل القوى الاستعماريَّة وعملائها بحسن البنَّا – كان الاستعمار الإنجليزي يريد استمرار السيطرة على مصر وكان البنَّا وجماعة الإخوان تشهر السِّلاح في وجه ذلك الاحتلال. فمنذ عام ١٩٤٦م وصاعدًا كان من الشائع أن تنفجر القنابل في عربات نقل البريطانيين ومنشآتهم، وأماكن سكنهم في المدن، حتى تم جلاء القوَّات البريطانيَّة عنها، ثم في منطقة القناة بعد ذلك، وكان الإخوان المسلمون وراء ذلك – ولم يكتف الإخوان بمناشدة الإنجليز بالجلاء أو التفاوض معهم كالأحزاب الأخرى – ولكن الإخوان جمعوا السِّلاح وقاموا بالتدريب عليه وبثوا فكرة الجهاد لدى صفوف الأمة، واعتبروا الكفاح المُسلَّح هو الطريق الوحيد والطبيعي لتحرير البلاد من براثن الاستعمار. ففي يناير ١٩٤٨م تم اكتشاف ١٦٥ قنبلة ومجموعة من الأسلحة في بقعة منعزلة عند تلال المقطم – وصودرت جميعُها بعد معركة بين رجال البوليس وبعض شباب الإخوان المسلمين الذين كانوا يتدرَّبون في المقطم [١].

وفي الإسكندرية قام اثنان من الإخوان المسلمين بمهاجمة مجموعة من الجنود البريطانيِّين في أحد الملاهي الليلية وسرعان ما تم القبضُ عليهما، وحُكم عليهما بالسجن المؤبَّد مع الأشغال، وتم احتجاز حسن البنَّا، إلا أنه أُطلق سراحه لعدم توافر الأدلة – وقد ترتب على هذا الحُكم القاسي الذي أصدره القاضي أحمد الخازاندار بك أنْ أُغتيل فيما بعد على أساس أنه أمر بسجن وطنيٍّ كل جريمته أنه هاجم المحتل البغيض.

كما تم اكتشاف مخبأ للسلاح والمعدات في عزبة الشيخ فرغلي قائد كتائب الإخوان في فلسطين. وهكذا كان واضحًا أن جماعة الإخوان قد بدأت طريقها

(١) المصري ٢٢ يناير ١٩٤٨م.

العملي في الكفاح المسلَّح ضد الاستعمار الإنجليزي – أضف إلى هذا ذلك البلاء العظيم الذي أبلته كتائب الإخوان في حرب فلسطين، وقيام الإخوان بتجنيد المتطوّعين وتدريبهم على السِّلاح – وقد خاضوا معاركَ مُشرِّفة على أرض فلسطين – كما قاموا بجهد كبير في محاصرة النفوذ اليهودي في مصر – والدعاية للقضية الفلسطينية وتأييدها بكافة السبل والوسائل.

وكان من الطبيعي أن يصبح البنَّا، وتصبح جماعة الإخوان ـ وقد أصبحت ـ الخطر الأكبر والأهم، وربما الوحيد على مصالح الاستعمار الإنجليزي، ومن مصالح اليهود أن يصبح حسن البنَّا هدفًا للتصفية، وتصبح الجماعة عُرضة للضرب والمؤامرات من جانب الإنجليز واليهود.

أضف إلى هذا أن حسن البنَّا – استطاع أن يبني تنظيمًا دقيقًا بلغ عدد أعضائه حوالي ٢/١ مليون ووراءهم كل الجماهير في مصر.

وانتشرت شُعَب الإخوان في كل قرية ومدينة مصرية – كما امتد تأثير الإخوان إلى جميع الأقطار العربيَّة والإسلاميَّة. ولم يكن أعضاء الإخوان مجرد أعضاء عاديين بل كانوا يملكون التربية الروحيَّة الهائلة والطاعة والنظام والتدريب العسكري – أي أن الحركة أصبحت من القوة بحيث أصبحت خطرًا على النظام كله، وهكذا فإن كل القوى كانت تتربص بتلك الجماعة وبهذا الصدد نرى بقول ريتشارد ميتشل «كان الباعث على حل الجماعة في ١٩٤٨م الاعتقاد بأن الجماعة كانت تخطط سرا للثورة»[1]

إذن فقد كانت الجماعة خطرًا على الانجليز وعلى اليهود وعلى القيصر الذي بات يخشى من إطاحة الجماعة به وبنظامه الملكي وإقامة نظام إسلامي على أنقاض النظام القديم. وكان القصر قد أدرك مغزى أحداث اليمن التي قام بها الإخوان المسلمون للإطاحة بالنظام الملكي القديم فيها، وإقامة نظام دستوري يعتمد على الإسلام.

وفي هذا الصدد يروي الأستاذ عمر التلمساني في ص٤٥ من كتابه «حسن البنّا»؛ «أن ملك السعوديَّة عندما زار مصر حذَّر الملك فاروق من حسن البنَّا،

(١) ريتشارد ميتشل – الإخوان المسلمون.

وأكَّد له أن هذا الفتى خطر عليه، وأنه أشد خطرًا على الملوك والرؤساء من الجيوش المُجيَّشة».

وعلى مستوى الأحزاب العلمانيَّة – كان حسن البنَّا وكانت جماعة الإخوان خطرًا شديدًا عليهم – فقد كان منطق البنَّا سهلاً ومُقنعًا – واستطاع أن يضم كل صفوف الشعب إلى جانبه لأن البنَّا أخذ من المواقف ما يؤكِّد إخلاصَهُ وإسلاميَّتَهُ، ولأن منطقه وبيانه كان مفهومًا للناس، ولأن الناس بفطرتها تعشق الإسلام وتهفو نفوسهم إلى كل ما هو إسلامي – وهكذا استطاع حسن البنَّا بحركته الدؤوبة أن يحول تلك الأحزاب إلى أحزاب هامشية لا جماهير لها – بل أصبحت ديكورًا في مسرح العرائس الذي يضم الإنجليز والملك ورؤساء هذه الأحزاب، كان حسن البنَّا وجماعة الإخوان خطرًا على القوى الموجودة في مصر. ومن ضمنها قوى الإقطاع والرأسماليَّة، وكان حسن البنَّا يطالب بتحديد الملكية الزراعية وإنصاف الفلاحين من الظلم والقهر – وكان يسعَى لإنشاء نقابات عُمّالية، ويطالب بتحسين الأجور ويؤيد إضرابات العُمَّال المظلومين – وكانت الجماعة تقدم التعليم وتقوم بمحو الأمية وتقاوم الأوبئة، وتنشئ الأندية والمدارس والمستشفيات – وكل هذا يرفع مستوى الوعي لدى الطبقات الشعبية مما يجعلها خطرًا على تلك القوى.

كان حسن البنَّا هدفًا في عيون أعداء الحضارة الإسلاميَّة – لقيامه وجماعة الإخوان بمجهود جبار في إعادة تمسُّك الأمة بدينها وتقاليد هويتها وشخصيتها، وعرَّض الإسلام قويًا ناصعًا قاطعًا على الجميع وبعث الروح الإيجابية لقيم الطهر والجهاد والوحدة.

كان حسن البنَّا، وكانت جماعة الإخوان خطرًا على كل التركيبة الاستعماريَّة التي تضم جيش الاحتلال – والقصر – القوى الصهيونية – الأحزاب العلمانيَّة – مدارس التفكير الغربي – الإقطاع – الرأسماليَّة – وغيرها. وقد أصبح واضحًا للعيان أن حسن البنَّا زعيمٌ مطاعٌ يمتلك قلوب وعقول جماهيره، وأن جماعته أصبحت تمتلك السلاح والتدريب، وها هي قد حققت بطولاتٍ فذة

على أرض فلسطين، وهكذا كان من الطبيعي أن تتحالف كل القوى لضرب الجماعة ومحاولة استئصالها.

وكان من الواضح أن الأسلوب التقليدي لضرب الجماعة لم يعُدْ يجدي – فالجماعة ووراءها كل الشعب أصبحت من القوة والوعي بحيث يصعب استخدام الأسلوب التقليدي في تصفية الجماعة.

كانت القوى الاستعماريَّة تعرف أنها أمام مجموعة من الحقائق كالتالي.

* جماعة قوية – متماسكة – موحَّدة – أفرادها مدربون تمتلك السِّلاح أو تستطيع امتلاكه، لها برنامج واضح يحظَى بالقبول الشعبي على أساس لغة الإسلام المشتركة بينها وبين الجماهير.

* قيادة فذة – نظيفة – ذكيَّة تمتلك مقومات هائلة في التحريك وفي الحسابات السياسيَّة.

* نظام منهار – فقدَ كل مبرِّرات وجوده – مع أزمة اقتصاديَّة وسياسيَّة واجتماعيّة طاحنة.

والنتيجة الطبيعية لكل هذا أن يقوم نظام إسلامي على أنقاض النظام القديم البالي، وكان على القوى الاستعماريَّة أن تعمل على منع تلك النتيجة الطبيعية وأن تطوّقها – لأنه يترتب عليها كثيرٌ من النتائج الخطيرة على مصالح الاستعمار، وعلى مستقبل دولة اليهود الناشئة في فلسطين، وهكذا دبَّروا بليل، و شتملت خُطتهم على عدة أبعاد، وأولها حَلّ الجماعة ومصادرة أموالها واعتقال أعضائها – مع عدم اعتقال حسن البنّا تمهيدًا لاغتياله. على أن يعقب ذلك استبدال للنظام البالي بنظام جديد، يحاول أن يلتف على المطالب الشعبية وتبَنِّي بعض أماني الشعب، بشرط ألا يشترك الشعب في شيء من هذا؛ أي أن تتحقق تلك المطالب بإرادة قيادة النظام الجديد فقط في مقابل تسريح الشعب من العمل السياسي، وكبت أي رأي معارض أو حتى موافق، وإدخال الشعب في حلبة القمع والكبت لعزله عن المشاركة في بناء حياته – ليسهل بعد ذلك تصفية تلك المكاسب المزعومة – ما دامت قيادة النظام الجديد مُسيطَرٌ عليها من قبل أجهزة الاستخبارات الاستعماريَّة.

وهكذا أعدُّوا لتلك الخُطة الجهنميَّة – ففي ١٢ فبراير ١٩٤٩م دُعيَ حسن البنَّا على نحو غامض إلى لقاء بالمركز العام لجمعية الشبان المسلمين، وأُطلق عليه الرصاص وهو في الطريق خارجًا من المبنى، بينما كان يتأهب ليستقل إحدى سيارات التاكسي، ومات بعد دقائق قليلة في إحدى المستشفيات القريبة – وكان حسن البنَّا قد سبق له أن أخبر إخوانه – على نحو نبوئي أن عدم قيام الحكومة بالقبض عليه هو دليل رسمي على انتواء قتله – وأوضحت الأدلة التي ظهرت فيما بعد أن القصر كان وراء تلك العملية، وقد نفَّذها البوليس السياسي على يد رجال البوليس السياسي أحمد حسين جاد، والضابطين أحمد عبد الحميد ومحمود محفوظ، وأحد قيادات البوليس السياسي ويُدعى محمد الجزار.

ولكن هل كان القصر وحده وراء المؤامرة..؟ لقد كانت المؤامرة بما تبعها بعد ذلك أكبر من القصر ومن البوليس السياسي، كان وراءها القوى الاستعماريَّة والمنظمات اليهودية، وتحالف الإقطاع والرأسماليَّة.. كان وراءها كل من يتربص الشر بمصر وبالعالم الإسلامي.

وباغتيال البنَّا – كانت الدوائر الاستعماريَّة قد حققت أولى مراحل خطتها – فمما لا شك فيه أن التخلص من شخصية البنَّا بما لها من ثقل جماهيري وذكاء سياسي كان خطوة هامة – وكان من الطبيعي أن يحدث شيءٌ من الاضطراب في صفوف الحركة لاختيار خليفة البنّا – وفي مثل هذا الجو كان الاستعمار قد استطاع أن يمرر اتفاقية رودس – وأن تقوم قوى تابعة له بانقلاب عسكري في ١٩٥٢م – وأن تتم الخطة بالضرب المستمر للجماعة ونزع فتيل الوعي لدى الجماهير وتسريح الشعب من الحياة السياسيَّة في مقابل بعض الإصلاحات المحسوبة جيدًا.

لم تكن الرصاصات التي أطلقتها الأيدي الآثمة على الإمام الشهيد طلقات الموت، ولكنها طلقات الخلود والشهادة، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران] صدق الله العظيم.

والله غالب على أمره.